البُعد الجهوي في الكتاب المدرسي لمادة اللغة العربية (كتاب التلميذ في التعليم الابتدائي نموذجاً)

فريد أمعضشو

اَلكتاب المدرسيُّ (Le manuel scolaire) وسيلة بيداغوجية، تُصاغ بعناية بالغة، وتشتمل على مضامين وأنشطة وإجراءات وغيرها، تتوخي، في مجموعها، تحقيقَ أهداف مسطّرة قبْلاً، لا تكاد تخرج عن تبليغ معارف للمتعلمين، وإكْسابهم مهارات وقدرات وتقنيات تنفعهم في حياتهم، وتكوِّن منهم مواطنين صالِحين.

وعلى الرغم من أنه أداة للتعليم والتعلم، إلا أن الكتاب المدرسي يكتسي أهمية كبرى، تجعله عنصراً أساسيا بالنسبة إلى المعلم والمتعلم معاً. وتكْمُن أهميته هذه – حسبما ورد في معجم «علوم التربية» – في أنه مصدرٌ رئيسٌ للمعرفة، يلازم المتعلم خلال مراحل تمَدْرُسه، وفي أنه يحدد للمدرِّس ما ينبغي له تدريسه للتلاميذ وكيف[1]. على أنه لا يجب أن نفهم من ذلك أن هذه الوثيقة تقيِّد المعلم بصرامة تمنعه من التحرر، أحياناً، ممّا يقترحه من أنشطة ونحوها، وتمارس عليه سلطة شديدة قد يستحيل معها إلى «عَبْد» للكتاب المدرسي يتقيَّدُ بما ينطوي عليه تماماً، دون أن تكون له الجُرأة لاقتراح نصوص أو أسْناد أو أنشطة أخرى تبدو له أجْدى وأنسب في سياق ممارسة العملية التعليمية، وأحسَنَ من تلك التي يقترحها الكتاب الذي يُعْمَل به في منطقته.

أن الكتاب المدرسي يكتسي أهمية كبرى، تجعله عنصراً أساسيا بالنسبة إلى المعلم والمتعلم معاً. وتكْمُن أهميته هذه – حسبما ورد في معجم «علوم التربية» – في أنه مصدرٌ رئيسٌ للمعرفة يلازم المتعلم خلال مراحل تمَدْرُسه

إن الكتاب المدرسي يجب أن يكون – في الحقيقة – أداة للاسْتِئناس بالدرجة الأولى، وأن تكون لدى المدرِّس به القدرة على التعامل الواعي مع ما يقترحُه، وعلى نقد ما يحتاج فيه إلى نقد بَنّاء، بالتزام أخلاقيات هذا الأخير، وعلى التقدُّم بمُقترَحات أخرى في حال ما إذا اعترى تلك المُقدَّمَة له، أصْلاً، في الكتاب نقص أو ثغرات، أو كانت غير مناسبة، وغير وافية بالغرض، وغير مُعِينَة على تحقيق الأهداف والكفايات المسطَرة. فما يقدّمه هذا الكتابُ إنما هو مجهود لثلة من الممارسين والباحثين، ومادام كذلك فهو يظل عُرْضةً لأنْ يتسلل إليه النقص والخطأ؛ كأيّ جهد بشري آخر ليس أصحابُه بالمعصومين أبداً. وفي هذه الحالة، يمكن لمُسْتَعمِل الكتاب، في عمله التعليميّ، الإتيان بنصوص بديلة، واقتراح أنشطة أخرى ممّا يراه أنسب وأدقّ وأفضل، مع ضرورة مراعاة مبادئ المنهاج المُعتمَد وأهدافه وغاياته، وتجنب كلّ ما مِنْ شأنه أن يمَسّ بالأخلاق والقيم والثوابت وغيرها. وفي هذا السياق، أكد د. محمد زرنين، في مداخلته التي شارك بها في ندوة «التطور الرقمي ومستقبل الكتاب المدرسي في المغرب»، على هامش الدورة الأخيرة للمعرض الدَّولي للكتاب والنشر بالبيضاء، أن الكتاب المدرسي، بوصْفه عمَلا مُغَرْبَلاً يختلف عن الكتاب العادي، أداة بيداغوجية للتدريس، وتشغيل التلاميذ للتحصيل العلمي. وأوْضَح أن قيمته أو حقيقته تظهر في الاستخدام، وأن المدرّس لا يجب أن يكون ملزَماً به، يدرّسه بطريقة ميكانيكية، بل اعتماداً على المنهاج الدراسي، وبمُرونة أيضاً تتيح له هامشاً من الحرية للتصرُّف إذا استدْعى المقامُ ذلك طبعاً[2].

ولا مناص لمَنْ يتصدّى لتأليف الكتاب المدرسي أن يلتزم بمجموعة من الضوابط، وأن يحترم جملة من المبادئ والتوجيهات، وأن يتجه إلى تصريف الأهداف المسطرة وتنفيذها بأيْسَر السبل حتى يستطيع المتعلمُ استيعابها وتمثلها والتشبُّع بها والانطلاق منها في بناء شخصيته، وخدمة محيطه ووطنه وأمته. ولعل من أبرز المواصفات التي ينبغي أن تتجسَّد في الكتاب المدرسي التصاقه بالواقع الذي يعيش فيه المتعلمون المُستهدَفون به، وارتباطه به بما يتسم به هذا الواقع من غنىً ثقافي، وتنوع اجتماعي وبيئيّ وغيره؛ لأن ذلك هو الضامن لتفاعل المتعلم معه، وإقباله بحُبٍّ عليه، مادام يلْمس فيه واقعه المَعيش، ويستجيب لجملة من انتظاراته وحاجياته. وهذا ما يجرّنا جَرّاً إلى الحديث عن البُعْد الجهوي في الكتاب المدرسي، بما في ذلك الكتب المعتمَدَة في التعليم المغربي، وبالخصوص في المرحلة الابتدائية.

يهدف النظام التربوي والتعليمي بالمغرب إلى تحقيق عدد من الأهداف الجوهرية، وإلى غرْس جملة من القيم في صفوف المتعلمين رجالِ الغَد، منها – على المستوى المُجْتمعي العام – «ترسيخ الهوية المغربية الحضارية، والوعي بتنوع روافدها وتفاعلها وتكاملها». ولأجْرأة هذا المعطى، يُلحّ النظام المذكور على أنْ تأخذ المضامين

المقدَّمة لمُتعلِّمي المدرسة الابتدائية بعين الاعتبار مواصفات ومحدِّدات أساسية؛ منها «استثمار غنى وتنوع الثقافة الوطنية والثقافات المحلية والشعبية باعتبارها روافدَ للمعرفة»، و«الاهتمام بالبعد المحلي والبعد الوطني للمضامين وبمختلف التعابير الفنية والثقافية»[3]. ونجد هذا الحرصَ على مراعاة التنوع الثقافي، والارتباط بالواقع المعيش، كذلك، في دفتر التحمُّلات الذي وضعته وزارة التعليم بالمغرب رَهْن إشارة مؤلِّفي الجيل الجديد من الكتب المدرسية، التي كان من المُقرَّر أن يُشرَع في تجديدها وتغييرها اعتباراً من الموسم الدراسي 2013/ 2014، وذلك ليكون مرجعاً أساساً يحدد لهم المواصفات والضوابط التي يلزمهم التقيد بها واحترامَها لدى اقتراح مشاريع كتب مدرسية للتنافس. إذ نقرأ في المادة الخامسة منه أن من مواصفات كتاب التلميذ(ة) لمادة اللغة العربية المنهجية الواجب مراعاتها لدى تأليفه «اعتماد وضعيات تعلمية تحفز على (...) توظيف معطيات المحيط المباشر للمتعلم(ة)؛ بغية التعلم ونقل المُكتسَبات». ومن مواصفاته التربوية والبيداغوجية ضرورةُ الإسهام في «إنماء الشخصية الوطنية الأصيلة، التي تحترم مكوِّنات الهوية الوطنية، مع مراعاة الخُصوصيات الجهوية والمحلية». وكذا الاحتواء على «أنشطة مستقاة من الواقع»[4].

وحين نتصفح الكتب المدرسية المتداوَلة في المؤسسات التعليمية بالمغرب (ولنركِّز على بعض كتب التلميذ لمادة اللغة العربية في السلك الأساسي من التعليم الابتدائي)، نجد أن هذا البعد الجهوي والمحلي حاضرٌ فيها، بشكل أو بآخر، ومُراعىً فيها ضمنيا، من دون التصريح به في مقدمات الكتب أو بين ثناياها؛ من منطلق أن الكتاب المدرسي مُوجَّهٌ إلى التلميذ المغربي، دون مَيْز بين مَنْ يسكن في الحاضرة أو البادية، ودون تمييز بين من يعيش في بيئة جبلية أو ساحلية أو سَهْلية أو صحراوية... ولذا تجدُ هذا التنوع حاضرا في الكتاب، ولوْ بدرجات متفاوتة طبعاً. ويتبدّى ذلك، بالأساس، من خلال الصُّوَيْرات المقدَّمة، ومن خلال بعض أسماء الأعلام المستعْمَلة فيه.

إن الصورة، في المجال التعليمي، عنصر أساس، ووسيط ذو أهمية قصوى، ولاسيما في السنوات الأولى من تمدْرُس التلميذ. وكلما تقدمت به السنوات في المدرسة قلّت الصور من الكتاب المدرسي الذي يتعلم به وفيه. فالصورة تساعد على تعلم التلميذ، وتيسِّرُ أمْرَ اكتسابه جملة من المعلومات والخبرات والمواقف ونحوها. ولا بد أن تتصف هذه الصور بمواصفات محددة؛ منها أن تكون وظيفية لا مجّانية مُؤتى بها لغير فائدة، وأن تكون واضحة ومعبرة، وأن تكون متنوعة غير مُشْعرَة بالروتين والملل. ومنها ألاَّ تمسَّ بالأَخلاق والآداب العامة والمقدسات والثوابت، وألاّ تكون منطويةً على دعاية لأي جهة أو ترويج لأي مُنتَج استهلاكي وغيره... بل يجب أنْ تكون رسالتها تربوية وتعليمية

أساساً، بعيداً عن الأدْلَجَة والانحياز والمِساس بما أشرنا إليه، وأنْ تحقق أهداف توظيفها، بيُسْر، حتى تكون محتوياتها وأبعادها قريبة من مدارك المتعلمين ومحيطهم وبيئاتهم، ومتصلة بها اتصالا مباشرا. لاحظْ أن التلميذ الساكن في بيئات بدوية نائية يصعب عليه إدراك فحوى صورة تعكس جانباً من الحياة الحضرية العصرية لم يسبقْ له أن شاهده، ومضمون صورة تمثل بعضاً من المأكولات أو الألعاب أو المظاهر المُمتّة بصلَة إلى حياة المدينة والتمدُّن. والعكس بالعكس تماماً. لذا يحرص الكتاب المدرسي على مراعاة هذه الفروق حين اقتراح الصويرات التعليمية. والأستاذ، من جهته، لمّا يتحرَّرُ من الكتاب المدرسي مُجْتهداً في اقتراح صور وأسناد أخرى، مساعدة في تبليغ أفكار ما أو محتويات ونحوها، ينبغي «أنْ يركز في انتقاء الصور والرسوم على الأشكال القريبة من المتعلم الصغير، خصوصاً ما يتصل بحياة الطفل وبيئته وخصوصيات المنطقة الجغرافية والتاريخية التي يعيش فيها»[5].

يبدو لمُتصفح الصور الواردة في الكتاب المدرسي لمادة اللغة العربية، بالسلك الابتدائي، أن عدداً منها يعكس خصوصيات بعض الجهات والمناطق داخل المغرب، ثقافيّاً واجتماعياً وجغرافيّاً، ويجسد ما يمتاز به هذا البلد العريق من تنوع ثقافي مهمّ. وبعضُها يشير إلى معالم تحيل على جهات ومناطق بعينها، لا يجد المتعلم، أحياناً، صعوبة في الاهتداء إليها وتعرُّفها، لاسيما إذا كان قد عايَنَها أو كان ممّا ينتمي إلى المُحيط الذي يقطن فيه. ففي مُفتتَح الوحدة الثالثة، من كتاب «مرشدي في اللغة العربية (السنة الثانية الابتدائية)»، صورتان يُهِمُّنا منهما الثانيةُ؛ إذ هي صورة فوتوغرافية تمثل منظرا ريفيا تؤثثُ فضاءَه دورٌ قروية، ومسجد، وأشجار مُزْهِرَة، وأرض مَريعة كسَتْها خُضرة، وجانبٌ من جبل تغطيه ثلوج ناصعة البياض[6]؛ مما يجعلنا نرجّح ترجيحا غالباً أن تكون الصورة عاكسةً لمشهد حقيقيّ من بيئة الأطلس الجبلية القروية. واقترح كتابٌ آخرُ، لإبراز بعض مظاهر احتفال المغرب بعيد العرش، صورة مرسومة تمثل مدينة وقد اكتست حُلة بهية بالمناسبة، ومن عناصر الصورة بابٌ من الأبواب العتيقة الملحوظة في عدد من مدننا العريقة (كالرباط مثلا)[7]. ودعا كتاب ثالثٌ التلميذَ إلى ملاحظة صورة يدوية، قبل الاستماع إلى نص «طيّارة من ورق» وقراءته، والتعبير عمّا لاحَظَهُ فيها، وهذه الصورة تُظْهِر ثلاثة أطفال يلعبون بطيارة ورقية على شاطئ[8]؛ مما يوحي بأن الصورة قد تمثل منظرا من منطقة ساحلية تطلّ على البحر أو على المحيط.

وفي كتاب «مرشدي...» نرى صوراً تمثل بعض الأشكال الاحتفالية لدى المغاربة، في بعض الجهات؛ إذ نجد في الوحدة السابعة، مثلاً، صورة لرقصة يبدو أنها رقصةُ أَحيدُوس، وصورة ثانية للتبوريدا[9] المعروفة في مناطقَ من المغرب[10]. وتُجسد هذا الشكل

الاحتفاليَّ الأخير صورُ كتب مدرسية أخرى؛ كما في كتاب «المفيد في اللغة العربية»، الذي عبّرت صوره عن التبوريدا في موضعين اثنين؛ أحدهما في الوحدة الثالثة (نشاط «ألاحظ وأقرأ» – حَرْفا الياء والجيم)[11]، والآخر في الوحدة ما قبل الأخيرة .. في الصورة المرافقة للنص المقترَح لتعلم حرف الواو، وهي عبارة عن رسم يدويّ يمثل فرساناً قرويّين، لبسوا أزياء تقليدية، وركبوا خيولهم المُسْرجة احتفالا بموسم الحصاد، وقد ركزت الصورة على لقطة من هذا الاحتفال فقط؛ وهي لحظة ركوبِ الفرسان خيْلَهم التي تعدو بسرعة، وبانتظام، وراكبُوها على أهبة الاستعداد لإطلاق البارود في السماء، وعلى جانبي المضمار اصطفّ أهالي القرية، صغاراً وكباراً، ذكورا وإناثاً، لمشاهدة العرْض البهيج[12]. وأرفق كتاب «مرشدي...» نصَّ «صيامي الأول» بصور يدوية تظهر عائلة «ريم»، وهي تحتفل بها، بمناسبة صيامها أولَ مرة؛ إذ عمّت مظاهر الفرحة البيت كله، ووعد الأبوان ابنتيْهما بهدية قيّمة لقاءَ صبْرها على العطش والجوع طَوَالَ اليوم13. والاحتفالُ بالصبيان لدى صومهم للمرة الأولى، من قبل عائلاتهم، عادة دأبت عليها جملة من مناطق المغرب؛ تشجيعاً لفلْذات كبدها على القيام بهذه الشعيرة، منذ سنّ مبكرة.

وإلى جانب نشيد «قلمي»، الوارد في الوحدة الثانية من كتاب «مرشدي...»، بعضُ الرسوم؛ أحدها عبارة عن خريطة للمغرب وُطِّنَ عليها أيقونات وصور رمزية، تحيلنا مباشرة على معالم ومناطق وأحداث بعينها[14]؛ إذ نرى في أعلى الخريطة صورة حمامة بيضاء، تشير إلى مدينة تطوان شمالَ المغرب، التي تُعْرف برمز الحمامة البيضاء. ونرى فيها، كذلك، صورة لمسجد الحسن الثاني بوصفه مَعْلمةً مميّزة داخل الدار البيضاء، وقد أثبِتَت في مكان المدينة على الخريطة. ونرى، في صورة الخريطة أيضاً، رسما لحُلي أمازيغي رامز إلى جزء من البلد، وهو الأطلس. وفي الأسفل صورة يدوية تشير إلى حدث المسيرة الخضراء، وتظهر فيها، كذلك، نخلة باسقة، وقد وُطِّنا معاً على الجزء الجنوبي من خارطة المغرب. وعليه، فقد اختيرت هذه الصور، بقصْد، لتعكس مناطق وخصوصيات ممّا يزْخر به بلدنا.

وعلاوة على هذه الصور وأشباهها، ممّا يشي بالتنوع الثقافي والاجتماعي والبيئي للمغرب، نلْحَظ في الكتاب المدرسي لمادة اللغة العربية (وتحديداً في بعض كتب السنتين الأوليَيْن من السلك الابتدائي) صوراً ورسوماً تُظْهِرُ المُشترَك بين جهات المملكة ومناطقها وساكنتها كلها؛ من ذلك مثلاً تلك الصُّوَيْرات التي تجسد ألعاباً تمارَس – فيما يبدو – على الصعيد الوطني، من قِبل أطفالنا في كل مكان، وإنْ كنّا نلاحظ بعض الفروق بينها من منطقة إلى أخرى، فيما يتعلق بكيفية ممارستها. ونمثل لذلك بلعبة الغُمَّيْضَة التي يتكرر حضورها، على مستوى

الصور، في عديد من كتب التلميذ، ولعبة الحَبْل، ولعبة كرة القدم، ولعبة الأرْجُوحة.

ولا يتجلى البعد الجهوي والمحلي في الصور والرسوم فحسْبُ، بل يمكن أنْ نلمسَه، أيضاً، في بعض أسماء الأعلام الآدمية المستعملة في الكتاب المدرسي لمادة العربية في التعليم الابتدائي. فإذا كان جُلّ أسماء الشخصيات المستخدمة فيه ممّا هو عامّ متداوَل في مختلف جهات المغرب ومناطقه .. في الشمال كما في الجنوب، وفي الشرق كما في الغرب – مِنْ مِثل أسماء خالد، وعثمان، وفريد، وأحمد، وإدريس، وفاطمة، وزينب، وخديجة، وهاجَر، وأسماء – إلا أن منها ما يُتداوَل في مناطق مغربية محددة؛ كاسم «للاّنمّولة» الوارد، مثلاً، في نصّ «كأمِّنا الحَنون»، في «كتابي في اللغة العربية»[15]، باعتباره عَلَماً سُمّيت به هذه الأم/ المرأة العَجوز الحنون في النص. فهذا الاسمُ غير متداوَل على نطاق واسع في المغرب، وأنا شخصياً لم يسبق لي أن سمِعْتُ به. وكاسم «يَطّو»، في النص المُعَنْوَن بـ«يطو وماعزتها»، مثلاً، الوارد في الكتاب نفسِه، ضمن وحدة «الطفل وعلاقاته في الحيّ والقرية»[16]. فهذا الاسم، كما هو واضح، أمازيغي يكثر االتّسَمِّي به لدى سكان الأطلس، وفي عدد من المناطق الجزائرية أيضاً، والصورة المرافقة للنص المذكور توحي، فيما يبدو، بمكان من مناطقنا الأطلسية، وتشير إليه؛ إذ تمثل منظراً لقرية جبلية جميلة، أرضُها خَصْبة خضراء. وهي، للإشارة، صورة غير واقعية، بل مرسومة يدويا لتكون سنداً يُساعِد المتعلم على فهم النص المكتوب المقترَح معها.

تلكم، إذاً، أمثلة مختارة من ثلاثة كتب مدرسية لمادة اللغة العربية، مقرَّرة رسمياً لتلاميذ السلك الأساسي من التعليم الابتدائي، يبدو لنا من خلال تصفحها أنها تنطوي على مؤشرات (صور ورسوم وأسماء أعلام) تعكس التنوع الثقافي للمغرب، والبعد الجهوي والمحلي للكتب في كثير من المَواضِع، وتدل – بالملموس – على احترام مؤلِّفيها للتوجيهات والضوابط المنصوص عليها في الوثائق الرسمية المؤطِّرة للمنظومة التعليمية، والموجِّهة لعملية إنتاج الكتب المدرسية وتأليفها.

الهوامش

1 – معجم علوم التربية (تأليف جماعي)، سلسلة «علوم التربية»، ع.9/10، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.2، 1998، ص 189.

2 – جريدة «بيان اليوم»، المغرب، ع.6897، الأربعاء 3/4/2013، ص 7.

3 – البرامج والتوجيهات التربوية الخاصة بسلك التعليم الابتدائي، مديرية المناهج، الرباط، شتنبر 2011، ص 9.

4 – دفتر التحملات الخاص المتعلق بتأليف وإنتاج الكتب المدرسية لمادة اللغة العربية – التعليم الابتدائي، مديرية المناهج، الرباط، أكتوبر 2011، ص 3 – 5 (انظر نص الوثيقة كاملا، إلى جانب دفتر التحملات الإطار ودفاتر التحملات الخاصة بباقي المواد الدراسية، في موقع وزارة التعليم على الأنترنت).

5 - الصورة في كراسة الوضعيات الإدماجية بالتعليم الابتدائي، أحمدالكبداني، مجلة «علوم التربية»، الرباط، ع.49، أكتوبر 2011، ص 154.

6 - مرشدي في اللغة العربية (السنة الثانية الابتدائية)، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط.1، 2003، ص 42.

7 - المفيد في اللغة العربية (السنة الأولى من التعليم الابتدائي)، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط.1، 2002، ص 111.

8 - كتابي في اللغة العربية (السنة الثانية الابتدائية)، المكتبة الوراقة الوطنية، المحمدية، ط.1، 2003، ص 160.

9 - جاء في الموسوعة الحُرّة «ويكيبيديا» أن «التبوريدة هي فن فُلكلوري، من ألعاب الفروسية التي تشتهر بين المغاربة. ويأتي اسمها نسبة إلى البارود المستعمَل لدى الفرسان المُتبارين. ويُطلق على هذه الألعاب أيضا «الخيالة» نسبة إلى راكبي الخيل. وتنتشر التبوريدة في (عدد من) مناطق المغرب العربية والأمازيغية والسهلية والجبلية. هذا الفن كان قبل قرون وسيلة لإبراز قوة الفرسان الذين يرغبون في إظهار كفاءاتهم في امتطاء صهوات جِيادهم، واستعمال أسلحتهم». (http://ar.wikipedia.org)

10 - مرشدي في اللغة العربية، ص 134.

11 - المفيد في اللغة العربية، ص 50.

12 - نفسه، ص 108.

13 - مرشدي في اللغة العربية، ص 136.

14 - نفسه، ص 34.

15 - كتابي في اللغة العربية، ص 121.

16 - نفسه، ص 48.